"كأسك يا وطن"

يؤسفني أن أُخيب ظنكم، فأنا لن أتحدث عن مسرحية "كأسك يا وطن" وهي مسرحية اجتماعية سياسية كوميدية سورية، بطولة الفنان دريد لحّام (الذي كان يعرف باسم غوار الطوشة)، وتعتبر من أشهر المسرحيات الكوميدية العربية الناقدة والهادفة والتي حققت نجاحًا كبيرًا في حينه (العرض الأول كان 1979).

لقد تذكرت هذه المسرحية حين استوقفني قولٌ لأحد أشهر الصحفيين في العالم وهو الصحفي "روبرت فيسك" والذي كان يسكن في بيروت حيث كان مراسلًا لصحيفة "الاندبندنت" البريطانية. لقد استوقفني قوله: أتعلمون لمَ بيوت العرب في غاية النظافة بينما شوارعهم على النقيض من ذلك؟! السبب أنّ العرب يشعرون أنهم يملكون بيوتهم لكنهم لا يشعرون أنهم يملكون أوطانهم!

هل بالفعل نحن لا نملك أوطاننا؟! يعدّ العرب من أكثر الشعوب تغنّيًا بالأوطان من خلال أشعارهم الحديثة وكتاباتهم وأغانيهم في جميع المحافل الاجتماعية وحتى بالأعراس والمناسبات السعيدة. اذا كان الأمر كذلك فلماذا كعرب، يطمح شبابنا في الهجرة إلى خارج البلاد، وتكون هذه أمنية الشباب الأولى وقمة طموحهم حتى قبل أن يبلغوا سن الرشد؟! كلّنا نذكر قوافل وطوابير المهاجرين الذين ركبوا البحار والفيافي هربًا إلى مدن أوروبا الباردة طقسًا وروحًا.

لماذا أصبحنا نخاف أن نذكر كلمة وطن ونرى أنها قد حذفت من قاموس أولادنا، لماذا نكثر من التغنّي بالأوطان ونهرب منها؟ هل بالضرورة أن يمر تحقيق وبناء الأوطان بالسجون والمعتقلات؟!

قد أكون انحرفت كثيرًا عن العنوان وعن المقولة، ولكن كل هذه التساؤلات خطرت ببالي عندما استذكر كلمة "الوطن". لا أنكر أنني حاولت أن أبحث عن مصطلح "الوطن" في الدين إلّا أنني لم أجد شيئًا يُذكر اللهم إلّا موضوع هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة حيث سُميّ الوطن باسم "الديار". هل معنى هذا أنّ مصطلح "الوطن" هو مصطلح غربي استعماري دخيل كل هذه التساؤلات تدور بمخيّلتي ولا أجد لها جوابًا شافيًا، أو أنني لا أرغب في الإجابة عليها ومواجهتها. لكن تبقى الجملة التي تقول إننا لا نملك أوطاننا.

أذكر أنني عندما كنت مديرًا لمدرسة بيت صفافا، قمت بشراء عددٍ من الطاولات والكراسي من ميزانية المدرسة وذلك لسد الحاجة الماسّة الناتجة عن تكسير الطلّاب المتعمّد للكراسي والطاولات ممّا اضطر لشراء المئات منها. وقد قمت مع مربيي الصفوف بتوزيع هذه الطاولات على الصفوف مع توصية الطلّاب بالمحافظة عليها لأنها من ميزانية المدرسة وأنها ستخدمهم وتخدم اخوتهم في المستقبل. وصدف أن مررت باليوم التالي خلال جولتي اليومية على أحد الصفوف العليا، وإذا بي أرى أحد الطلّاب قد قام بحفر اسمه على الطاولة الجديدة بصورة بشعة جدًا مستعملًا مسطرة حديدية لذلك.

اعترف قد جُنَّ جنوني عندما رأيت هذا المنظر واستشطت غضبًا. وعندما سألت الطالب لماذا قام بذلك، صدمني بجوابه اذ قال لي: "ماذا بذلك؟! الطاولة ملك لأولمرت" كان (ايهود أولمرت) آنذاك رئيسًا للبلدية.

هذه القصة رمزية لما نشعر به تجاه أوطاننا وأملاكنا العامة. فنحن نخلط ما بين الوطن والحكومة أو البلدية. فالوطن هو ملك للحكومة وعليه فإننا نتعامل مع أوطاننا كما نريد أن نتعامل مع الحكومة التي قد تكون ظالمة أو غير مُنصفة. فيقوم الشباب بتخريب الممتلكات العامة من حدائق ومقاعد ومحطات

"باص" وغيرها من الأمور، ويقومون بخلع الأشجار والأزهار من المتنزهات انتقامًا من "اليهود" حتى لو كنّا نسكن في قرية نائية لا يدخلها أحد ولم يرَ أهلها يهوديًا في حياتهم.

لنكن صريحين مع أنفسنا، نحن نأخذ الحاكم والحكومة شمّاعة نعلّق عليها أخطاءنا، لأننا نحن المستهلكين لسياسات حكوماتنا، نحن عبارة عن نسخة مصغّرة من حكوماتنا التي ندعي عليها بالهلاك. نطالب بالحريّة وبداخل كل واحد منّا دكتاتور صغير، نطالب بالعدل وإعطاء الحقوق ونحرم بناتنا واخواتنا من الميراث، نخرج لنسهر مع أصدقائنا ونحبس زوجاتنا في البيوت. طالبنا بحقوقنا ولكننا نسينا واجباتنا.

هل يوجد حل لهذه المعضلة؟ كيف ومتى؟

أنا متفائل جدًا لإيجاد الحل. لقد بدأ شبابنا بالاعتياد على الحياة الجميلة واعتادوا على السفر، كما اعتادوا على الدخول بالنوادي والاطارات اللامنهجية وزيارة المتاحف والمعارض. كما أنني أراهم يندمجون أكثر وأكثر بأعمال التطوع والعمل الجماهيري، حتى لو اقتصر الأمر على تنظيف المقابر والمساجد فهذه بداية مباركة وإيجابية. لذا فإن الحل هو التربية، التربية للقيم والأخلاق، التربية للمساهمة في بناء المجتمع والوطن. فكما قال القائل:

"الانسان لا يحتاج إلى شوارع نظيفة ليكون محترمًا، بل الشوارع تحتاج إلى أناس محترمين لتكون نظيفة".

أرجو لكم كل الخير

15-04-2021

أ.أيمن جبارة